

من المعلوم أن التنظير هو أعلى درجات التفكير، ومن ثم فهو أكثرها صعوبة لأنه لا يمكن ولوج بابه إلا بعد إنجاز واجتياز مراحل سابقة من البحث والدرس. وإلا صار محض تأمل انطباعي أو تفكير مجرد ومغامر، أبعد ما يكون عن العلم والمنطق. أما التنظير كما يجب أن يكون فهو تحويل التراكمات العلمية بدءً بالوصف ثم الاستقراء والاستنباط إلى بديهيات، وتقنين قوانين عامة تفسر كل الجوانب الموضوع وتجيب عن تساؤلاته. وهذا يعني وجود اختلاف جوهري بين التنظير وبين التأويل، إذ أن التأويل يدخل في إطار الرأي، بينما يتعلق التنظير بالرؤية. فالرأي عادةً يرتبط بجزئية ما في موضوع عام بهدف الوقوف على أسبابها، أما التنظير فموضوعه أعم وأشمل، ومن ثم فهو يمثل الحصاد النهائي لمجموعة من الآراء الجزئية وينظمها في رؤية تجانسية ومتسقة. ومن خلال هذه الرؤية يمكن الإجابة ببداهة عن التساؤلات المتعلقة بالجزئيات الموضوع العام، على أساس أن الجزئيات هي التي تكون الكليات، وما ينسب على الكل ينطبق على الجزء بداهة[١].

تعتبر النظرية من أهم الحوائج في عمليات التخطيط والتغيير وبدونها النظرية الاجتماعية *Social Theory* يفتقد المتخصصون في علم الاجتماع طريقة التفكير السليم أي المنهج العلمي الذي يقربهم من أهدافهم ومن مواجهة الظواهر الاجتماعية المختلفة[٢]. والتنظير السوسيولوجي بصورة عامة يُعتبر العملية التي يتمكن بواسطتها الأفراد من تفسير بيئتهم الطبيعية والاجتماعية. بحيث تتم تلك العملية (التنظير) في إطار وضع اجتماعي معين، (بمعنى أن التنظير يُعرف على أساس أنه ذو بعد إيديولوجي، وفكري، وتاريخي) وأنه يتضمن تعريفاً للواقع الاجتماعي والطبيعي لهذا الوضع الذي يتم في سياق التنظير. وبهذه الطريقة تشير النظرية إلى تفسير الواقع وتأويله[٣]. ويمكن اعتبار تنظير التيار الراديكالي (النقدي) في علم الاجتماع المعاصر، تنظيراً نقداً جذرياً لعلم الاجتماع التقليدي، يهدف إلى إحداث تغيير جذري في النظام الاجتماعي القائم في المجتمعات الغربية واستبداله بنظام اجتماعي آخر جديد يحقق إنسانية الإنسان[٤].

وهكذا فإن التنظير السوسيولوجي النقدي المعاصر بدأ يسيطر فكرياً على الساحة الأكاديمية لعلم الاجتماع في فترة ما بين الحربين العالمتين وما بعدها، كرد فعل مباشر على نتائج عملية التنظير السوسيولوجي لفهم وتفسير المجتمع، التي أفرزتها النظريات الكلاسيكية لعلم الاجتماع بفرعيه المحافظ والراديكالي، حيث إن تنظير تلك الأنساق (النظرية) قد عجز عن تفسير الواقع الاجتماعي تفسيراً موضوعياً، مما أدى إلى عدم قدرته على إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات التي تتفاقم

بداخله، " بسبب اشتداد الخلافات المنهجية والرؤى النظرية بين تلك الأنساق خلال عملية تنظريها للمجتمع، بالإضافة إلى تأثرها بأحداث السياق الاجتماعي والمتمثلة بالحرب العالمية الثانية، التي دمرت أحلام التنوير المتعلقة بالحداثة وأوثانها الثلاثة، وهي العقل والحرية والتقدم "[٥].

يمكن لنا القول أن النظرية الاجتماعية التي نتجت عن عملية التنظير السوسيولوجي بشكل عام ليست ثابتة، فقد كشف الأبحاث العلمية، أن النظرية الاجتماعية صورة مصغرة عن الواقع مفسرة لأجزائه وشخوصه ومؤثراته وارتباطاته. حيث يتصف هذا الواقع بأنه دائم التغير، وهذا يعني أن أي تغيير في الحقائق يؤدي إلى تغيير في النصوص وتقييمات النظرية. لذا يجب على مقولات النظرية أن تكون مرنة وقابلة للتعديل والتطوير والتنقيح حتى تظل النظرية موجهة للبحث الإمبيريقي[٦]. وفي نهاية يمكن لنا تعريف التنظير السوسيولوجي بأنه " التنظير الذي بدأ بعد ظهور علم الاجتماع ذاته. حيث بدأ بعض المهتمين بشؤون المجتمع، تطوير بعض الفرضيات المتعلقة بطبيعة المجتمع، في ديناميته واستقراره، مع التأكيد على إمكانية اختبار هذه الفرضيات للوصول من خلالها إلى حقائق علمية يمكن أن تشكل مادة لمجموعة من القوانين التي تزيد من سيطرة الإنسان على المجتمع "[٧].

* المراجع :

[١] محمود إسماعيل: **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي محاولة تنظير**، دار المحروسة، القاهرة، ط١، المجلد:١٠، ٢٠٠٥، ص(١٣).

[٢] أحمد صديق: **نظرية جديدة في علم الاجتماع – النظرية الفئوية**، بدون دار نشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦، ص(٥).

[٣] جراهام كينلوش: **نظرية علم الاجتماع – نماذجها الرئيسية وتطورها**، ترجمة: فادية عمر الجولاني، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص(١٥-١٦).

[٤] سمير نعيم أحمد: **النظرية في علم الاجتماع (دراسة نقدية)**، دار هاني للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص(٢٦٥).

[٥] عبد القادر عرابي: **المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية**، دار الفكر العربي، دمشق، ط١، ٢٠٠٧، ص(٢٢).

[٦] ياس خضر البياتي: **النظرية الاجتماعية جذورها التاريخية وروادها**، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، ٢٠١١، ص(٢٢).

[٧] علي ليلة: **بناء النظرية الاجتماعية**، المكتبة المصرية، الإسكندرية، سلسلة النظريات الاجتماعية، الكتاب الأول، بدون تاريخ، ص(٢١٤).

الله من وراء القصد وهو يهدي السبيل